طبيعة المدن الفاضلة

لحسن أنيس

١ — ان الحياة التي عرفت الوجود الطبيعي الذي يتألف في جوهره من نظام دقيق يسير وفق قوانين ضرورية، ثابتة لا تعرف التخلف ، عامة لا تعرف التجزؤ والاختصاص . هي هذه الحياة نفسها التي بدأت تشعر شيئاً فشيئاً « بوجود اجتماعي » تتألف طبيعته من نظام تركيبي عضوي دقيق يسير تبعاً لقوانين اجتماعية تماثل القوانين الطبيعية في الضرورة والثبات والصرامة . وتلك القوانين الاجتماعية ليست مبادىء يخترعها الذهن ليحل بها الطبيعة الاجتماعية حلاً صناعيًا ولكنها روابط مكتشفة اكتشافاً من « طبيعة الاشياء الاجتماعية » ذاتها ، ويصدق منتسكيو كل الصدق حين يقول « القوانين هي الروابط الضرورية التي تشتق من طبائع الاشياء »

فمثل الظاهرة الاجتماعية في النشأة والتطور مثلُ الكائن الحيّ يخضع في نشأته وتطوره لنواميس ليس للارادة مهما كانت سلطان عليها أو تدخل في عملها إلا في الحدود التي تتيحها هذه القوانين ذاتها ، وهي حدود يسيطر عليها روح التنظيم الاجتماعي العام

٢ — ولما كانت « الجماعة » كوناً متطوراً واعياً وعياً اجتماعيًا فهي « تشعر » بنوع من الرضا أو نوع من السخط في كل مقام تبلغه من مقامات التطور ، الذي دفعتها اليه القوانين الاجتماعية ، دفعاً على القسر لا على المشيئة الانسانية . وكان من الطبيعي أن تشعر الجماعة بالرضا اذا لاءمتها آثار هذه القوانين حتى يبلغ بها الرضا في كثير من الاحايين أن تنتزع هذه الصفة من نفسها وتخلعها عنوةً على القوانين ، فالقدر الذي يمنى القانون في بعض الافهام حسن خيّر في نظر المشتري اذا حلّ الرخاء بهبوط الاسعار ، وهو شرير قاسٍ في نظر البائع ، والمطر اذا هبط وقت الاحتياج فالقدر طيب خيّر ، واذا هبط بحيث لا تبغيه الارادة الانسانية فهو أحمق أهوج . وليس في الحقيقة على القدر شيء فانما هو القانون الاقتصادي في الحال الاولى والقانون الطبيعي في الاخيرة وليس القانون في ذاته خيراً أو شراً على الحالين

ويعنينا أمر الجماعة حين تحس السخط ، لأن آثار القانون لم تلائمها . أو لأن القدرة المحركة التي يستطيعها الجسم الاجتماعي لا تتناسب مع مرامي الادراك الجمعي ، بحيث يبدو الواقع الحاضر ناقصاً هزيلاً بالقياس الى المثال الذي تتصوره الجماعة وتريد أن تبلغه ، فتموزها

الاداة وظروف الواقع في هذه الحال ومثلها التي تحس فيها الجماعة بحاجة روحية دائمة الى التغيير والاستحالة يهتز كيان الجماعة هزاً عنيفاً وقد يكون التغيير هو التنفيس الوحيد في هذا الطور ، فتهيؤ الجماعة لذلك قلباً عبقرياً تطلق على لسانه مشاعر الوعي العام فيعقلها صورة كاملة للحياة المأمولة الغائبة : المفقودة أو الموعودة التي يدركها الذهن وتقصر بواعث الوجود عن وضعها موضع العمل والتنفيذ — هذه الصورة هي المدينة الفاضلة ، وهي بذاتها دلالة أكيدة على موقف من مواقف الذهن يومىء الى حقيقتين خطيرتين هما : —

اولاً . الشعور بفساد المجتمع القائم . ثانياً — والحاجة الى بناء مجتمع مأمول

٣ — فهي نموذج كامل للنظام المرجو لحياة اجتماعية بأسرها ، وهي سيرة خالية من البأساء والخطايا ، خالية من المرض والفقر والجهالة يسودها الحب والعدالة ، الثروة موزعة بين أهلها توزيعاً حسناً بحيث يجد كل مواطن حاجته بين يديه ، ولغة هذه الجماعة لغة فصحى لا تعرف التعدد ولا تعرف اللهجات ، والمواطنون الفاضلون يعيدون كل البعد عن الشقاق الديني لان الحرية الدينية مكفولة بل ان الشعور الديني موحد لا يتشقق فيحدث الخلاف ويثير الفتنة . ومن بعض حسنات هذه الجماعة انها لا تشعر البتة بالشقاق العائلي لان الزوج عاقل فاضل والزوجة عاقلة فاضلة والاولاد قد تنشأوا على الحب والحرية والفضيلة . ذلك اذا اعترفت الجماعة بنظام عائلي . اما اذا كانت شيوعية مطلقة فلا شقاق أيضاً . فالحكمة قد حمت الذكر والانثى من هذا اللجج والشحناء والمدينة تفيض كلها بالحكمة والقوة والثراء ، يرف على حواشيها الضياء المأنوس من الحق والخير والجمال الذي يرعاه دستور مثالي تقوم على تنفيذه حكومة مثالية صالحة على رأسها حاكم حكيم . فيلسوف في بعض المدن أو السان من طبيعة فذة ليس لها مثال بين عامة المحكومين ، مزود بملكات اضافية زائدة تكاد ترفعه الى درجة نبي كما هو الحال في مجتمع الفارابي فالمدينة الفاضلة نموذج لحياة اجتماعية سامية متينة البناء تؤدي وظائفها في حدود الكمال المنشود ، بل ان الآلة الاجتماعية هنا آلة مثالية لا يناالها العطب ولا تبطىء في تحقيق رغبات المجتمع بوجه عام

٤ — تلك هي السمات الملحوظة على العموم في المدن الفاضلة من حيث الجوهر والطبيعة وان اختلفت في العرض والشكل فقد يكون نحوى المدينة الفاضلة مضموناً ايجابياً منشأه رعي تصوير المستقبل وبهمل الواقع وقد يقتصر بعض المثلين على تصوير الواقع تصويراً سالباً يكتفي بنقد الحاضر والسكوت عن المستقبل ، ولكنها جميعها تتفق على الاشارة ان جهراً وان خفية ، الى التبرم بالواقع ، ورجاء المستقبل الصالح

وقد تضيق الرقعة التي تنشأ فيها المدينة الفاضلة حتى تصبح في سعة جزيرة صغيرة مثل

الاوسيانا Oceana التي أنشأها جيمس هرنجتون James Harrington وقد تتسع حتى تشمل ما يصاهي عندنا كله مثل المجتمع الانساني الذي حلم به الفارابي ولكن لا ضير من الضيق او الاتساع على الجوهر في الحالين

بل قد تنشأ المدينة في الجو اليوناني الوثني ، او العصر المتوسط المسيحي أو في الوسط الاسلامي أو في العصر الصناعي ، فتصطبغ المدينة بصبغة الوسط الاجتماعي الخاص ، ولكن اختلاف الالوان والاصباغ لا ينال من الطبيعة الاساسية التي تكوّن المشترك العام بين جميع المدن

كذلك نلحظ اختلافاً من هذا القبيل في طرق الحل او الحلول التي تعرضها هذه المدن بأن يكون المحور الاجتماعي الذي تدور عليه بقية دعاوى الاصلاح هو « العدالة » التي يهدي اليها الرشد الفلسفي كما هي الحال في « الجمهورية » او ان تكون « الشيوعية المطلقة » مثلاً هي الفكرة السيدة التي تخدمها بقية الافكار مثل ما في مدينة الشمس Civitas Solis التي ابتدع بناءها المفكر الايطالي كمبانلا ، ومثل فكرة « الحب » التي تترأس التنظيم والاصلاح في أرض سالانت Salente التي خالها فينلون ، وقد يكون الحل مرتبطاً بتوزيع الثروة العقارية » كما دعاه الى ذلك صاحب الاوسيانا Oceana وان غير ذلك من أختلاف في طرق الحل والحلول المعروضة ، التي جاءت تبعاً للخلاف بين الحاجات الروحية للجماعات المختلفة في كل زمان ومكان . ولكن اختلاف طرق الحل وتعدد الحلول لا يغير من طبيعة المسألة العامة شيئاً

٥ — فما هي هذه الطبيعة ؟ أقصد طبيعة البناء الفكري التي تقوم عليها الوحدة المشتركة بين هذه الاطار جميعاً مهما اختلفت أشكال المدن وتعددت ألوانها ، بل مهما تباينت مناهج الحل وكثرت الحلول المعروضة ولاذ في الاستطاعة تصور الاجابة من المفاهيم التي تضمنتها الفقرات السابقة . ومن الممكن القول أيضاً ان طبيعة هذا الفكر هي الطبيعة التأليفية التركيبية التي يتركز فيها النظر فيما ينبغي أن يكون » ويهمل « ما هو كائن » فهي ارادة اصلاح وعمل وتغيير تعدها روائد روحية محررة لا تعرف الشعور بالواقع ولا تحسب حساباً لظروف الحياة وارادة الانسان الحقيقية وقدرة الجماعة على العمل . وهي زيادة على ذلك تجهل « الطبيعة الاجتماعية » وما تخضع لها من قوانين في وضع هذه القوانين التي مكنّا له في الفقرة الاولى

٦ — من ثمة فشلت المدن الفاضلة حينما أريد تحقيقها حالة في هذا الكوكب ، وشعر بعض أصحابها بهذا الفشل . وكان من لوازم هذا الشعور لون من ألوان التحول الفكري : فبرم

أفلاطون « بالجمهورية » وعدّل من أفكاره ، بما يلائم النظر العقلي الذي يشعر بالواقع الاجتماعي شعوراً حقيقيًّا وكان أن دوّن « النواميس » وكذلك تحوّل الفيلسوف العربي عن فكرة المجتمع الانساني الاسلامي العام الى مدينة ضيقة فاضلة . وعلى كل حال فهذا التحول لم يكن يكفي ليلائم بين طبيعة النظام في هذه المنشآت الجديدة ، وبين القوانين التي تسير وفقها بالضرورة طبيعة الوجود الاجتماعي . ولهذا تحتم عليها الفشل هي الاخرى ذلك بأنها كسابقتها ليست ملائمة للقوانين الاجتماعية الضرورية ، ولكنها مبنية على مبادىء ذهنية مفارقة فرضت على الواقع فرضاً صناعيًّا فامتنع تحقيق هذه المدن في المكان وان كانت قد تحققت تحققاً كاملاً في الاذهان

والحق ان توماس مور كان ملهماً حين وسم مدينته الفاضلة باسم اليوتوبيا Utopia لاول مرة في تاريخ أسماء هذه المدن . ومعنى اليوتوبيا الحرفي انها التي لا توجد في أي مكان وتابعه في ذلك وليم موريس فجاءنا بأخبار النوهوير Nowhere وقلب ترتيب أحرفها أخيراً S. Butler فأطلق عليها اسم إرون Erehwon وهي بحق التي لا توجد في أي مكان لانها لم ترع بالنظر الواقعي ذلك المكان

٧ — ومن حق علم الاجتماع البحت ان يأخذ عليها انها أغفلت « ما هو كائن » و « ابتغت ما يكون » فخدعت بذلك في « موضوع العلم الحقيقي وشروطه » . وخدعت على الاثر في « المنهج الخاص » المتبوع وفقدت اذاً شرط العلم البحت الذي يقف من الظواهر عند الوصف والشرح والتأويل ابتغاء « كشف القانون » . ولكن هذه النظرة على حقيقتها وصحتها التامة ، لا تعدو النظر الى الوجود من جانب واحد

٨ — على كل حال فان هي هزلت قيمتها في ميزان العلم المحض فهي بنفسها ميزان للخير والشر بما تقدمه من مثل مطلقة توزن بها المجتمعات الانسانية كما يقول جورج سوريل حين يعوزنا الميزان والتقويم

٩ — وهي بعد في النظر الانساني العام منشأة ذهنية تضرّمت فيها آلام وأحلام ، والطوت على تمكنات أدّت بتعديل النظر في حقوق الشعوب والجماعات ، وأعانت على ايقاظ الوعي الجمعي فصقلت وازعاً حاضراً قائماً في الضمائر والأعيان

فان كان القانون صلب لا يلين تحت ضغوط الرغبات الانسانية فالمدينة الفاضلة معنى حي يتوسع بما فيه من مرونة الأحلام والاوهام — وما أعز هذه الاحلام وهذه الآمال حين تضطرب الجماعات وتنحبط من الفوضى والشرور . وما أحوج هذه الجماعات في لحظات الحرج والضيق الى مؤنس يقص سيرة الحياة الفاضلة الخيالية ، ويرسم صورتها بخطوط واضحة .